الطفولة والصبا

عند مايقترب الإنسان من نهاية العمر يشرع ذهنه فى سرد الذكريات التى حفلت بها بدايته . وأجدنى فى الوقت الحاضر أدنو من عتبة الستين ، وأسأل وأتساءل عن الأصل والأرومة وعن العوامل الوراثية والبيئية التى تكونت منها هذه الشخصية التى قد تزول بعد بضع سنوات ، إذا اعتبرنا متوسط الأعمار فى مصر ، أو قد يمتد بها العمر عشر سنوات أو عشرين سنة أخرى ، وهو متوسط السن فى عائلتنا .

وقد رأيت القرن التاسع عشر بعين الطفولة . ورأيته وهو خلو من الغش لم يلابسه شىء من مخترعات القرن العشرين . وهذا مالا يستطيع أن يقوله أوربى لأن إرهاصات القرن العشرين كانت تبدو واضحة فى أواخر القرن التاسع عشر فى أوربا أما فى مصر فقد حدث العكس ، وهو أن تراث القرن التاسع عشر بل بعض القرون التى سبقته بقيت عالقة ببداية قرننا هذا . وما زلنا فى سنة ١٩٤٦ نرى هذا التراث على أثقله فى طبقاتنا الفقيرة . وليس هذا من ناحية الوسط فقط حيث الفقر المذل ، بل من ناحية النفس أيضا ، حيث الرضا بالحظ المقسوم والايمان بالخرافات والتسليم بالنظم الاقطاعية كأنها الشىء الطبيعى لمجتمعنا .

أجل ! لقد ركبت الحمار من محطة القاهرة إلى عابدين ، ورأيت الجاموسة تحضر كل يوم من العزبة إلى منزلنا بالزقازيق كى تحلب ثم تعود . وضربت من أختى لأنى ناديتها باسمها من الشارع ؛ إذ كان يعد من الشعائر الاجتماعية العامة ألا تعرف أسماء الفتيات . وعشت فى الزقازيق حين لم تكن تعرف المصابيح ، حتى إننا كنا حين نزور بعض أقاربنا ، نحمل معنا « فانوساً » نسترشد به فى ظلام الشوارع. ورأيت أحد المجرمين يشنق فى ميدان الزقازيق، وبقيت نحو عام وأنا أفزع من اسمه ، وكان يدعى سيد أهله . ولم أكن أستطيع النوم إلا وأنا متعلق

بعنق أمى ، ولم أكن أستطيع الدخول فى المرحاض إلا بمرافقة الخادم . وكان من المألوف الذى كنا لا نحس فيه وخزاً أو عيباً أن يجرى خلفنا الفلاح نحو ساعة ونحن على الحمير وهو يلهث كأنه والحمار سواء .

وكانت لنا دار « قوراء » فى الزقازيق تتسع لحمار أو بغل فى فنائها الذى يستقبل السماء وتفرش أرضه أشعة الشمس . وكانت هذه المطايا أتومبيلات العائلة وفقاً لشعائر القرن التاسع عشر . ولعل إرماد عينى فى صباى كان يعود إلى روث هذه البهائم .

والزقازيق بلدة جديدة لا يرجع تاريخها إلى أكثر من ثمانين عاماً . وجميع عائلاتها لهذا السبب ينتمون إلى بلدان أخرى . وكذلك كانت أسرتى فانها ترجع إلى البياضية فى مديرية أسيوط . وقد تركنا البياضية منذ نحو ١٤٠ سنة أى فى نهاية الحكم الفرنسى وبداية حكم محمد على . وأسرتنا فى مديرية الشرقية تعرف بلقب « العنى » ولا يزال هذا اللقب فى البياضية على الرغم من فرقة تقارب قرناً ونصف قرن . والأصل والفرع يعيشان فى يسر ؛ فان عمدة البياضية لا يزال من عائلة العنى . ولكن ليس هناك أى تعارف بين أعفياء البياضية وأعفياء الشرقية . ولم نزر هذه القرية منذ ١٤٠ سنة .

أما لماذا هجر فرعنا الحاضر فى مديرية الشرقية هذه القرية الصعيدية ، فاننا نجهل تفاصيله ، ولكنى أرجح هذا التفسير التالى :

لما غزا نابليون مصر فى أواخر القرن الثامن عشر انتعش الأقباط . ولم يكن الشعب المصرى ، مسلمين ومسيحيين ، يحس الوجدان الوطنى الذى نحسه فى عصرنا ، وذلك لأن الوجدان الدينى كان يقوم مقامه . وفرح الأقباط بدخول نابليون واستطاعوا أن يجرءوا على تغيير ملابسهم وأن يرحلوا عن قراهم فى الصعيد إلى القاهرة وبلدان الوجه البحرى . وكانوا إلى ذلك الوقت يتعممون بالعمائم السود مع أزياء أخرى يختصون بها ويتخذونها مضطرين منذ القرون المظلمة . وكانت هذه الأزياء الخاصة تمنع تنقلهم وارتيادهم مدن القطر . فلما جاء نابليون نزعوا هذا الزى واتخذوا الزى المصرى العام الذى كان ينفرد به إخوانهم المسلمون ، وبذلك أتيح لهم التنقل . وأنا أعد هذا السبب الأصلى لنزوح أبى جدى من البياضية إلى القاهرة ، ثم إلى القراقرة فى مركز منيا القمح ثم إلى الزقازيق .

ومما يؤيد هذا التفسير قول الجبرتى فى حوادث ١٢٣٣ هجرية :

« فيه نودى على طائفة المخالفين للملة من الأقباط والأروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود ولا يلبسون العمائم البيض ؛ لأنهم خرجوا عن الحد فى كل شىء . ويتعممون بالشيلان الكشميرى الملونة والغالية فى الثمن ، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول ، وأمامهم وخلفهم الخدم يطردون الناس عن طريقهم . ولا يظن الرائى لهم إلا أنهم من أعيان الدولة . ويلبسون الأسلحة وتخرج الطائفة منهم إلى الخلاء ويعملون لهم نشاناً يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك . فما أحسن هذا النهى لو دام . »

ولكنه لم يدم كما اشتهى العالم الأزهرى الجبرتى . ويبدو أن الأقباط والأروام عادوا فتوسلوا بالقناصل الفرنسيين والايطاليين إلى محمد على فألغى هذا التمييز ، فاستطاع الأقباط أن يختلطوا بسائر الشعب وأن يرحلوا ويتنقلوا كما شاءوا . وواضح أن الأزياء السابقة التى كانوا يتخذونها منذ الحاكم بأمر الله كانت تجمدهم فى قراهم لأنهم كانوا إذا انتقلوا إلى مدينة غريبة صاروا عرضة ، على الأقل ، للتهزئة والتعيير ، إن لم يكن لأكثر من هذا .

وهجر أبو جدى قرية البياضية حوالى ١٨٠٠ أو ١٨١٠ فى عمامة بيضاء . وكان هذا من الانتصارات الخطيرة للقرن التاسع عشر على القرون السابقة .

وجميع أفراد عائلتنا يعدون بحسب الترتيب المزاجى لكرتشمر، انطوائيين. يتسمون بالوجه الطويل والقامة النحيفة والاعتكاف أو كراهة الاختلاط . وأحياناً يبدو هذا المزاج فى مبالغة شاذة حتى إنى أعرف أشخاصاً فى أسرة العفى عاشوا كأنهم كانوا رهباناً يتوفون المجتمع ولا يحضر أحدهم عرساً أو جنازة إلا بضغط، وقد لا يجدى الضغط . ولكن هذا الشذوذ كان بالطبع نادرا .

ومات أبى ولما يبلغ عمرى السنتين . ونشأت لذلك فى بيت لا يزوره ضيف ، إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال ، فزادنى هذا الظرف انزواء على ماورثت من المزاج الانطوائى . وقد صار هذا الانزواء بعد ذلك فضيلتى ورذيلتى معاً . فقد كانت تمضى علىّ السنة والسنتان لا أعرف فيها القعود على القهوة . كما أنى إلى الآن أجهل ألعاب الحظ البسيطة بالورق أو غيره مما يتسلى به غيرى . وما زلت أفرّ من المجتمعات فى استحياء أو كراهة . ومع أنى أحسن الكتابة فانى أسىء

الخطابة ؛ لأن الأولى تؤدى فى انفراد ، والثانية تحتاج إلى مجتمع . وقد عانيت كثيراً من هذا النقص الاجتماعى فى حياتى بعد ذلك ولكنى أعزو إلى انطوائيتى هذا الاعتكاف فى مكتبتى، وهو الذى بسط لى آفاقاً واسعة وأمتعنى بجنات نضرة وغرس فى نفسى ديانة بشرية سامية .

وأولى الذكريات التى تمثل فى ذهنى من أيام الطفولة ، صورة أمى وهى قاعدة إلى فراشى تصلى من أجلى وأنا مريض . ولا أعرف كنه هذا المرض الذى أزمنى الفراش نحو عام أوعامين . والأغلب أنى مرضت به وأنا فى الخامسة أو السادسة ، ولعله كان حمى الملاريا ؛ لأن الزقازيق كانت فى ذلك الوقت حافلة بالبرك الآسنة . ولما قاربت الشفاء كان خادمنا عطية يحملنى إلى ضريح ولىّ مسلم يدعى أبا عامر . ولا يزال ضريحه قائماً بقرب الزقازيق . وكان يشترى الشمع ويتصدق بقروش ، ويدور بى حول الضريح ويتمسح به ويقرأ الفاتحة جملة مرات وأنا على عاتقه . وكان عطية متعلقاً بى يهمل شئون البيت كى يقعد بجوارى ويلاعبنى وأنا مريض . وبقى أكثر من عشر سنوات بعد ذلك بمنزلنا . وكان حبه لى ساذجاً يطغى ، فكان يلقمنى الطعام حتى أعجز عن البلع . وكان هذا العجز علامة الشبع عنده . ولم يتركنا الا بعد أن اشترى فدانا وآثر الفلاحة على الخدمة المنزلية .

وأدخلت الكتّاب، ولم تكن بدعة المدارس قد ظهرت فى الزقازيق ، وقضيت من السنين مالا أذكره وأنا أجهل القراءة . وكانت غاية العريف أن يعلمنى عن ظهر قلب بعض الصلوات . فلما حفظت « نعظمك يا أم النور » وهو دعاء إلى العذراء ، رافقنى إلى البيت وقعد هو أمام أمى وانطلقت أنا أسرد الدعاء . وناولته أمى على أثر ذلك جنيهاً .

وتألفت فى الزقازيق جمعية خيرية من الأقباط ، وكان أول نشاطها أن أنشأت مدرسة « عصرية » أى إنه كان بها مقاعد من الخشب ومعلمون فى زى أوربى . وانتقلنا من الكتاب إليها . وشرعنا نتعلم وندرس فى جد . ثم ظهرت المدرسة « الأميرية » فدخلناها . وكان التلاميذ يلبسون الجلابيب إلى أن زار الخديوى عباس هذه المدرسة حوالى ١٨٩٩ فطالبونا باتخاذ الزى الأوربى . وحصلت المدرسة من كل تلميذ على ٢٥ أو ٣٠ قرشاً ثمن بذلة بيضاء لكل منا . وزارنا الخديوى ونحن فى هذا الزى الأبيض الناصع . ولم نعد بعد ذلك إلى الجلابيب .

ولا يستطيع مصرى التحق بالمدارس المصرية الابتدائية والثانوية الأميرية فيما بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أن يقول إنه كان هنيئاً بالحياة المدرسية . فقد كانت هذه المدارس ثكنات ، وكان كل مايستحق الاهتمام فيها هو النظام أى الطاعة . ولم نكن نعرف ذلك الروح الديمقراطى الذى يعم المعاهد التعليمية فى هذه السنين . وكذلك لم تكن هناك أية ألفة بين المدرس والتلميذ . وكانت هذه الصفات أبرز فى المدارس الثانوية منها فى المدارس الابتدائية ، حتى كان العام يمر والتلاميذ لا يعرفون اسم المعلم الانجليزى الذى كان ينطق صمته قبل حديثه بالغطرسة . وكان المعلم يسرع إلى العقوبة لأقل إيماءة مخالفة من التلميذ وكانت العقوبة المألوفة أن يحرم التلميذ من الغداء ويعطى رغيفاً يأكله وهو واقف إلى جنب زملائه القاعدين إلى المائدة . ولست أظن أنه كان يقصد بهذه العقوبة سوى تعميم الذلة والهوان بيننا .

وكان التعليم فى المدارس الابتدائية أقل ذلة ، لأن المعلمين كانوا مصريين ، ولكن حتى هنا كان القرن التاسع عشر يثب علينا بأساليب فى الضغط والعربدة . فكان المعلم أحياناً يعمد إلى أسلوب فى العقاب يفشى بيننا الكراهة والوقيعة . ذلك أنه إذا أخطأ أحدنا وردّه تلميذ آخر إلى الصواب عمد هذا الثانى إلى لطم الأول على خده . فاذا تلطف هذا الضارب وأدى العقوبة تأدية شكلية استعاده المعلم وطالبه بالضرب الجدى . فاذا انطلقنا بعد ذلك من الفصل فى الفسحة أمسك المضروب بخناق الضارب وانتقم منه .

ولكنا كنا نهنأ بالإجازات المدرسية التى كنا نقضيها فى الريف . وهى لاتزال تبرز فى ذهنى كأجمل وأنصع ذكرياتى . وفى هذا الريف اكتسبت كثيراً من الاختبارات التى لاتتحقق لأطفال المدن . وكانت قريتنا تبعد عن الزقازيق نحو ساعة على الحمار . وكنا نلعب مع صبيان المزارعين إلى الساعات الأولى من الصباح . وأحياناً كنا ندبر السرقات فى الحقول للخيار أو البطيخ . ولا يزال عالقاً بذاكرتى بعض الاقتحامات والصبوات . فقد تسلقت ذات مرة شجرة كان فى أطرافها العليا عش . فلما بلغته وجدت فيه فرخى غراب . فأمسكتهما بيدى وشرعت أهبط . ولكنى ما كدت أترك العش حتى وجدت ثورة من اللطم المؤلم والعض الشنيع تغمر رأسى ووجهى . وطار عقلى وأنا فى هذا الاضطراب ، فلم أتنبه إلى أن هذه الثورة هى أم الفرخين يساعدها أب أو عم ولو

كنت أدركت خليت عن الفرخين ونزلت فى سلام . ولكنى لفرط الألم والرعب بقيت فى غشية مغمض العينين وأنا ممسك بالفرخين أتحسس طريق الخطرة على فروع الشجرة إلى أن مسست الأرض . وهنا أفقت وفتحت عينىّ فوجدت ثلاثة أو أربعة من الغربان وهى تصرخ بى وتسب وتهاتر بعد أن أثخنتنى وضرّجت رأسى ووجهى بالدماء .

ومرة أخرى فى إحدى جولاتى سمعت خشخشة فى ديس عند حرف القناة . فلما اقتربت وجدت جحراً وظننت أنى قدهبطت على عش سأخرج منه بغنيمة . فلما أدخلت يدى قبضت على جسم طرى ، فجررته فاذا به ثعبان .

ولكن الريف لم يكن كله على غرار هذه المفازع . فان مباهجه ، والأنسة الديمقراطية التى كانت تنعقد بينى وبين الصبيان الذين كانوا فى سنى ، والليالى التى كنا نحييها فى السمر أو اللعب ، والاستحمام فى النهر ، وركوب الفرس ، والجولة إلى السوق الأسبوعية ، ثم إلى ذلك معيشة الريف الساذجة ، كل هذا كانت تحفل به حياتنا فى الصبا ، وكنا نجد اهتمامات تشغلنا . ولم تكن كلها صبيانية ؛ فإنى أذكر أن ولادة الجاموسة حركت عقلى وقلبى جملة أيام ، وما زالت صورتها إلى الآن ترتسم فى مخيلتى وهى فى حرج الولادة تئن وتلهث وتتلفت ، وجميعنا حولها فى عطف نتألم لها ، وكان بعضنا يدعو لها بالسلامة كأنها صديق من البشر ، حتى خرج المولود بعينيه الواسعتين وهو يترنح ونحن نسنده وأمه تحنو عليه وتلحسه .

وحصلت على الشهادة الابتدائية فى سنة ١٩٠٣ . ولا أعرف بالضبط كم كان عمرى . لأن إثبات الميلاد لم يكن فى أيامنا من القواعد الصارمة . ولكن أغلب الظن أنى ولدت حوالى ١٨٨٨ . ودخلت السنة الأولى فى المدرسة الأميرية وأنا فى الحادية عشرة وهى السن التى نال فيها ابنى بعد ذلك هذه الشهادة . . . ومع ذلك كنت أعد من صغار السن فى الفصول ؛ إذ كان بيننا من بلغوا العشرين .

وعند ماأقارن بين ما تعلمته بالمدرسة الابتدائية بالضرب وسائر العقوبات بما تعلمته عفواً فى الريف من اختبارات فى الحياة ، أجد أن الريف قد علمنى أكثر وأكسبنى من المعارف الذهنية والروحية ما يعد تربية حقة ما زلت أنتفع بها إلى الآن . فقد اكتسبت من الريف هذا الحب للطبيعة الذى جعلنى أحس سائر

حياتى أن الأرض هى الأم . وأكاد وأنا فى الريف أشعر ، مثلما شعر ذلك الراهب فى قصة «الإخوة كرامازوف» لدستويفسكى ، حين انبطح على الأرض يقبلها ، أنى أحس مثل هذه العاطفة المقدسة . وظنى أن هذه العاطفة هى المبعث الذى انبعث منه بعد ذلك وجدانى الدينى البشرى واستطلاعى الدائم لعالمى النبات والحيوان واهتمامى بشئون العمال .

وكانت حياتنا بالريف سليمة من الناحية الصحية . فانه على الرغم من أننا كنا ندوس الحقول ونخوض القنوات بلا حذاء ونستحم فى النهر ، فاننا لم نعرف البلهارسيا أو الأنكلستوما . وذلك لأن التربة لم تكن قد استشبعت بالماء كما هى الحال الآن ، بعد أن عمت مشروعات الرى التى أحالت أرض القطر المصرى كلها تقريباً إلى عزبة لإنتاج القطن دون أى اعتبار لصحة الفلاحين . وأذكر أن التربة كانت أيام الجفاف تتشقق ، وكان عرض الشق يزيد على عشرة سنتيمترات ويغور نحو نصف متر . وفى مثل هذا الوسط لم تكن الديدان تستطيع الحياة . وكانت صحة الفلاحين سليمة وأجسامهم قوية . ولكن الانجليز المتسلطين على بلادنا وقتئذ رأوا أن إنتاج القطن خير لهم من صحة الفلاحين .

وكانت الحياة الدينية أبرز من الحياة الاجتماعية أو المدنية فى العائلات القبطية . وهذا على عكس ما نرى الآن . فانى أذكر أنه كان لعيد الميلاد رجة عظيمة تمتاز بمقدمات ولواحق . وكنا نعد له الأيام وتتهيأ بالملابس والنقل والذبائح . وكانت تفد إلى بيتنا عجوز تقضى فى كل عيد نحو شهر لا أعرف أصلها ولكنى أذكر اسمها خريستا وكانت تقص علينا الأساطير البديعة كما تصنع لنا أنواعاً من الكعك المزخرف .

وقد ورث الأقباط التعاليم الكنسية كما كانت حين تجمدت فى الدولة البيزنطية فيما بين القرن الرابع والقرن السادس . ولذلك كانت « العذراء » بارزة بروزاً يبرر وصف الأوربيين للعقيدة المسيحية فى مصر فى نهاية القرن الماضى وأوائل الحاضر بأنها « ماريلوجية » . ولكن انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر استفز الكنيسة القبطية وأثارها إلى الوجدان المسيحى . وكثير من الأقباط يأسفون على انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر ويجدون فيه شقاقاً لم يكن ضروريًا . ولكنى أظن أنه لولا هذا المذهب لما تنبهت كنيستنا ولما استيقظت من نعاس القرون الماضية .

وكانت المرأة ، مسلمة أو قبطية ، تعيش فى ظلام الحجاب لا تجالس الضيوف من الرجال . وكان هؤلاء يزورون أو يزارون فى « منظرة » لا تشترك فى لقائهم المرأة . وكان البرقع عامًا لا تخرج امرأة إلا ووجها مقنع . وأذكر أن أمى وأخواتى المتزوجات التزمن البرقع إلى حوالى سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨ حين تركنه . وظنى أن هذا الترك كان من أثر البروتستنت أيضاً لأنهم كانوا ألصق بالغربيين وأكثر أخذاً بطرقهم منا نحن الأقباط الأرثوذكس .

سلامة موسى